الشيخ محمد الخضرى بك

١٨٧٢ — ١٩٢٧

للأستاذ محمد عبد الجواد

الأستاذ بمعهد التربية للمعلمات بالزمالك

كتب الشيخ رحمه الله « تاريخ حياته » مفصلا فى عدة كراسات تربو على العشر . ولم يكتف فيه بسرد الوقائع والحوادث ، بل كان يعلق على كل شىء يراه ، أو حدث يمر به ، فيفسره أحيانا تفسيرا نفسانيا ، أو يعلق عليه تعليقا اجتماعيا . وكثيرا ما حذر من آثار الخطأ الذى كان يشاهده ، أو نصح لغيره بما يراه من صواب أو نهج مستقيم .

وقد قدر لكاتب هذه السطور أن يقتحم هذه الكراسات وأن يتصفح ما تبعها من الأوراق ، فاستهوته آراء الشيخ وملاحظاته ، وكادت تنسيه ما يريد من ذكر شىء عن حياة الشيخ ، رغم ما ناله من مشقة فى قراءة ما كتبه بالمراد أحيانا ، وبغيره أخرى . غير أنه قد اطلع على مافيها وأثبت شيئا من روح الأستاذ فى كتابته ، وهو يرمى بهذا النمو من الترجمة للاستاذ إلى عدة أغراض:

الأول : ـ تعويض ما ناله من التعب فى القراءة ، وما قطعه من الوقت الطويل فى الاطلاع على المكتوب ، وإن استمتع بما قرأ .

الثانى : ـ أنه أحب أن يطل روح الشيخ مما كتب ، على قراء الصحيفة

الثالث : ـ أنه ينفذ لصاحب الترجمة بعض مايعتقد أنه كان يود ، من نشر شىء عن سيرته ، ولو موجزا إيجازا مخلا ، وما لايدرك كله لايترك كله ، وإليك ما أراد من تلخيص :

حياته فى المكتب : أشرف على السابعة وهو بين يدى المعلم فى المكتب، ويدى أبويه فى البيت .

كان أبوه عالما متدينا ، جمع إلى حب ابنه قسوته عليه ، لأنه كان ضيق الصدر سريع الغضب ، لا يملك قياد نفسه إذا رأى غير مايريد . كانت عصاه إلى جسم ابنه أسرع من كلامه إلى أذنه وقلما كان يراه يبتسم لئلا يجرؤ ابنه عليه .

ولم يكن خوفه من معلمه بأقل من خوفه من أبيه ، لأنه رأى من قسوة الفقيه ، وسمع من وصية الآباء بالشدة مع أبنائهم ، ماهو معلوم من قولهم للفقيه أو المعلم « إكسر وأنا أجبر » .

قد استحوذ عليه الخوف ، واستولى عليه الذعر ، فإذا ماسئل عن شىء صاغ له من الكذب ماينجو به ، وربما علمته أمه الكذب . ويقول : إنه مهر فى هذه الصناعة ، وكثيرا ما استعان عليها بيمين الله ، ذلك لشدة خوفه ، على الرغم مما كان يصيب والده إذا وعك . ولكن الولد اتخذ من ذلك ذريعة إلى خداع أبيه بالتمارض ، فجمع بين رذيلتى الكذب والخداع .

اعتاد أن يوقظه أبوه فى السحر ليذهب معه إلى المسجد لصلاة الصبح جماعة وفى أول وقتها . أراد بذلك أن ينشىء ابنه على عبادة الله ، ويغرس حبها فى نفسه . فكان الطفل يذهب مع أبيه بملابس لاتقيه ألم البرد فى الشتاء وقد توضأ الوالد فى البيت وتدثر بما يكفيه .

وصف ميضأة جامع شيخون ، وبرودة مائها ، وصحن الجامع الرخام ، وذكر كيف مسح بالماء على وجهه مسحا ، وقطع الصحن عدوا ، ووقف بجانب والده وصلى فريضة الصبح ، ووالده مسرور به مع أنه قد خدعه .

لم يكن أبوه من ذوى اليسار ، فهو عالم من علماء الأزهر ، خطيب فى جامع ألماس بشارع الحلمية ، يتناول من الجهتين مرتبا لا يفى بحاجه وحاج أهله إلا مع القصد الدقيق . وكان الولد يذهب إلى المكتب كل يوم ، ومعه رغيف وقطعة من النحاس ، هى « القرش الخردة » . يرى الاطفال فى المكتب

يتفكهون بأكل الحلوى ، فيود أن يقف موقفهم ، ولكن لاسبيل إلى ذلك بامانة الله !.

اضطرته حالته هذه إلى اختلاس قرش من جيب أبيه حينما خلع ملابسه وهو يصف موقفه هذا بدقة ومهارة . وكرر الاختلاس وأغراه النجاح فيه حتى اقتطع من كيس أبيه مرة أربعة قروش دفعة واحدة .كان ذلك أول الشهر أراد الشيخ أن يعد دراهمه ليقسمها بين مقتسميها ، فاكتشف السرقة وسأل الأم فى ذلك ! خاف الولد مغبة الحادث فأسر الى أمه بما كان ، فعادت واحتالت على الشيخ الذى غضب وألقى إليها النقود لتعدها ، بإن أعادتها إليه كاملة ، بعد أن ضمت إليها القروش الأربعة

ولم يكد يتم العاشرة من عمره حتى حفظ القرآن الكريم

وقبل أن يسترد لنا حياته فى الأزهر ذكر شيئا عن حج أبيه سنة ١٣٠٢ ووفاته سنة ١٣٠٦ لمناسبة تتعلق بهما : سافر أبوه إلى الحجاز سنة ١٣٠٢ « سنة ١٨٨٥ » وترك مع ابنه ـ وهو فى الثالثة عشرة ـ خاتمه ليقبض به مرتبه فوقع به على شهادة لأحد المجاورين . ولما عاد أبوه من الحجاز علم بالأمر من الشيخ المهدى شيخ الأزهر ، وأخبرت الولد أمه باطلاع أبيه وأسرت إليه بحيلة لدرء خطر العقوبة على هذا الجرم الكبير ؛ وهى أن يستحلف أباه باسم شيخه الشيخ الخضرى ، وقد فعل ونجا من العقوبة .

يذكر المترجم أنه فرح بنجاته فرحا عظيما ، وورث من أبيه حب شيخه الشيخ الخضرى ، وذهب صبيحة الجمعة إلى القرافة فزار جدث الشيخ ، وأخبر أباه بهذه الزيارة ، فدعا له وأهداه هدايا حسنة .

بجانب هذه الصورة الاخيرة لحب المعلم ، بقيت عنده صورة الخداع والمكر ، ولا يدرى أيهما كان أقوى أثرا .

مات أبوه سنة ١٣٠٦ « ١٨٨٨ » وترك له أمه وخمسة أشقاء لايزال أصغرهم رضيعا ، وقد أشرف هو على السابعة عشرة . ذهب إلى شيخ الاسلام والدموع تنم عما به من الحزن ، لفقد الوالد والحيرة فى تجهيزه . قبل يد الشيخ

وقال له إن أباه قد مات ، فقال له : ومن أبوك ؟ قال : الشيخ عفيفى الباجورى فقال : رحمه الله ! قل للشيخ .. يأمر المؤذنين بالتبرير على المنارات . وكفى.

عاد إلى منزله وهو يفكر فى أمر العلماء الموسرين ، ويذكر أن جيرانه الفقراء قاموا بالواجب نحو جثة أبيه ، وأتمه الليالى الثلاث .

أيامه بالأزهر

كانت مدة إقامته بالازهر نحو سبع سنوات [شوال سنة ١٣٠١ ، أغسطس سنة ١٨٨٤ جمادى الأول سنة ١٣٠٨ ، ديسمبر ١٨٩٠] حضر فيها فقها ونحوا وتفسيرا وحديثا ومنطقا وبلاغة وتوحيدا.

وقد أطال المترجم بصدد ما أفاد من دروس الفقه والتوحيد والمنطق وعلوم العربية والتفسير والحديث وغيرها وتعرض لشىء مما صادفه فى الكتب وحواشيها مما لا يتفق مع العلوم الكونية والواقع ، وذكر كثيرا من الأشعار والقطع المنظومة ، فى قص الأظافر ، ومعرفة ليلة القدر ، ونحوها كالحكم فى جواز الاشتغال بالمنطق ، وأوجه البسملة المعروفة .

وكان شيوخه فى الفقه أربعة هم أبوه [الشيخ عفيفى الباجورى] والشيخ سليمان العبد والشيخ محمد الطاهرى والشيخ محمد ابراهيم القاياتى ، رحمهم الله أجمعين، حضر عليهم شروح ابن قاسم والخطيب ، وتلقى التحرير وشرح المنهج .

وكان يظن عند دراسته أنه سيرقى عن درجة العامة فى العلم الذى يحسن العمل ويرقيه ويجعله أقرب إلى الله منهم ؛ غير أنه يعترف بانه لم يفد مما قرأ من الفقه تحسينا فى عمله ولا ترقية فيه . فإن صلاته قبل تفقهه كانت صلاة العامة ، أما بعد ذلك فقد صارت صلاة روعيت فيها الصناعة الفقهية ، واشتدت غفلته عمن يصلى له ، وهو لذلك يرى أن صلاته كانت أقرب إلى العمل الآلى الذى لا يشترك فيه القلب إلا قليلا .

وقد قرأ فى العلوم العربية سبعة كتب آخرها شرح الاشمونى على متن الألفية .

أما علوم البلاغة فقد بدأ فى حضور شرح السعد وتلقى متن السمراقندية ، ويذكر أنه لم يكن له من وراء هذه العلوم غاية يسعى إلى دركها .

وقد نال شيء من البركة بحضور درس فى صحيح مسلم على المرحوم الشيخ البسيونى سنة كاملة .

ويذكر أنه حافظ على حضور دروسه بالأزهر ، إذ كان يذهب إليه صبيحة كل يوم ويعود منه بعد العصر ، وليس لديه ما يلهيه عن استذكار دروسه ، إلا أنه قد أوقعه سوء الحظ فى غرامه ببعض الألعاب التى منها لعبة (الدمينو) ، حيث لحظ اللاعبين فى إحدى المقاهى التى كان يمر بها ، ويتفرج فيها فصمم على أن يلعب مع لاعبيها ، وقد تأخر عن مواعيده المعروفة لوالده . وكان يخبره عند سؤاله أنه يتلقى درسا بعد العصر ، يريد أنه يخدعه كعادته . ويقول إنه بعد وفاة والده اتسعت حريته ونالت نفسه من هذه اللعبة بغيتها وبرع فيها بغشه لمن يلاعبه ، وكان يتعمد الكذب أحيانا . وكثيراً ما كان يتلهى بذلك عن صلاته ، وكان إذ ذاك خطيبا مكان أبيه . وقد ذاع أمره فى ذلك ، وكاد يفتضح حاله ، لولا أنه خشى على قلب أمه من الحزن ونكبته فى وظيفته ، التى عليها قوام منزله ، فلم يعد إلى اللعب بعدئذ أمام من يخشى شر قالتهم . وهو يرى فى ذلك ، صورا رديئة وآثارا سيئة ، سجلها تحت هذا العنوان فى مذكراته .

دخوله دار العلوم :

بينما كان يمشى ذات يوم بحارة السادات (بدرب الجامين بالقرب من مكان دار العلوم القديم) بجانب أبيه ، إذ سأله ، أحق أن هنا مدرسة اسمها مدرسة دار العلوم ؟ ، قال ذلك بعد ترددوخوف من أبيه . فوقف أبوه فجأة كأن أمرا هائلا قد فدحه ، وقال له ووجهه مغضب ، هلكنا ولم نشعر ، كررها مرتين . وقد حاول الولد تعليل السؤال أو الاعتذار عنه لأبيه فلم يفلح . وكأن أباه قد شعر برغبته فى الابتعاد عن الأزهر بدخوله هذه المدرسة التى كان هو وشيوخه يرون أن فيها تعاليم تفسد عقيدة المسلمين !

وبعد وفاة أبيه بسنتين كان يدرس لبعض الأفندية من كتاب الدواوين درسين وكان الذى يدرس له النحو يعجبه أن يراه طالبا فى دار العلوم ثم مدرسا بالمدارس ، فألح عليه فى دخولها ليتعلم بها من العلوم مالم يكن بالأزهر « بل ما كان التحدث به جريمة من الجرائم » ، فلان له ، وقام الأفندى بتقديم الطلب وحمله على الذهاب للامتحان .

وقد قبل بالمدرسة فى أوائل سنة ١٨٩١ بين من قبل ، ولكن فى القسم الاعدادى الذى ألغى قبل انتهاء السنة المكتبية ، غير أنه لما ألغى هذا القسم عاد فلحق بالمدرسة فى أكتوبر سنة ١٨٩١ بالقسم العالى وحمد الله على الدخول .

وقد بقى بالمدرسة أربع سنوات تقدم فيها إخوانه ، وكان فى نفسه منها صور ذات آثار . وهو لا ينسى فيها ألمه لحادث لا يد له فيه ، وذلك أن شركة كوك طلبت إلى نظارة المعارف اختيار جماعة من طلاب المدارس العالية بها تحملهم على إحدى بواخرها فى النيل ، لزيارة الصعيد وآثاره . وطلب من ناظر المدرسة أن يختار عددا من طلبة مدرسته ، فاختار الأول والثانى من كل فرقة للقيام بهذه السياحة ، ماعدا فرقته التى اختار منها الثانى والثالث ، وترك الأول ، وهو المترجم ، لفقره ، وهو يتألم لذلك ويقول « مسكين هذا الذى يتألم ، ولا يجد من يشكو إليه آلامه ، بل لا يجد محلا للشكوى » . ومع اعتذاره عن إدارة المدرسة بأنها أرادت أن يظهر طلاب المدرسة بمظهر اليسار ، أمام سائر الطلبة ، حتى لا يكونوا عرضة للاحتقار والاستخفاف فانى — أيها الكاتب — أتألم لألمه .

وفى مارس سنة ١٨٩٥ طلب اختيار طالب بالسنة الرابعة للتدريس بمدرسة الصناعة بالمنصورة ، على أن يعود لأداء الامتحان آخر العام ، فاختير هو لذلك ، وسافر إليها فى ١٩ من مارس سنة ١٨٩٥ ، وبعد شهرين عاد إلى مصر وأدى امتحانه ، ثم عاد إلى المنصورة مدرسا بعد الاجازة الصيفية .

فى التدريس والقضاء

	شهر	سنة
عين فى ١٩ مارس سنة ١٨٩٥ مدرسا بمدرسة الصناعة بالمنصورة		
لغاية أغسطس سنة ١٨٩٩	٦	٤
فى سبتمبر سنة ١٨٩٩ نقل إلى شبين الكوم ومكث بها لغاية		
ديسمبر سنة ١٩٠١	٤	٢
فى يناير سنة ١٩٠٢ نقل إلى مدرسة الناصرية ومكث بها لغاية		
أغسطس سنة ١٩٠٢	٨	—
وفى أول سبتمبر سنة ١٩٠٢ عين قاضيا بالسودان ومكث به		
لغاية أغسطس سنة ١٩٠٤	—	٢
وفى أول سبتمبر سنة ١٩٠٤ عين أستاذا بكلية غردون بالسودان		
ومكث به لغاية أغسطس سنة ١٩٠٧	—	٣
وفى أول سبتمبر سنة ١٩٠٧ عين أستاذا بمدرسة القضاء الشرعى		
وبقى بها إلى سنة ١٩٢٠	—	١٣

ثلاثة وعشرون عاما قضاها فى التدريس ، وتخللها سنتان فى القضاء ، عمل فيها مع خمسة من نظار المدارس على اختلاف أسنانهم وألوانهم ، وهم : على ثروت ، محمد رشدى ، أمين سامى ، أحمد هدايت ، محمد عاطف بركات .

ولم يرد الأستاذ أن يمر ببلد أو ينقل إلى مدرسة بدون أن يقيد شيئا عن المكان ومن به ، ونحن نذكر قليلا مما قيده :

فى مدرسة الصناعة بالمنصورة : وبخ تلميذاً فرد عليه قائلا : «جئنا لنتعلم لا لنسمع الكلام الفارغ» فقال له الأستاذ : «لقد أصبت يابنى وأخطأت» فجلس التلميذ ثم جاء إليه واعتذر . فشكر له اعتذاره ، واعتبر مادار بينه وبين التلميذ فى مبدأ عمله مرشداً له فى سلوكه مع تلاميذه .

فى شبين الكوم : كان يشتغل بدروس الخط ، وبالأعمال الكتابية ، وكانت صلته بالناظر فى الأعمال الكتابية سببا لكثير من المتاعب ، لما كان يحصل

بين الناظر « محمد رشدى » صديقه ، الذى كان معه مدرسا بالمدرسة الابتدائية بالمنصورة ، والأساتذة الخمسة المشايخ .

وهو بذلك يوصى المدرسين ، لا سيما المشايخ منهم : ألا يجعلوا لسوء التفاهم بينهم وبين النظار سبيلا ؛ وأكثر مايأتى هذا البلاء من الفضول، فينبغى ألا يشتغلوا إلا بما يعنيهم ، ويتركوا ما لم يكلفوا مراقبته ، ويوصيهم أيضا بالتعاون ، لأنه إذا اختل فسد كل شىء معه ، وذكر من حوادث المدرسين فى غيابهم المصطنع بعض الحكايات .

ذكر علاقته بأهل شبين الكوم ، وأنهم لا يألفون ولا يؤلفون، بعكس أهل المنصورة ، الذين كان يغشى مجالسهم كثيرا ، وقلما كان يعرف أحداً من موظفيها . بخلاف شبين .

ذكر صداقته لمدير المنوفية « محمود صبرى باشا » وحبه له لتواضعه ، وإكرامه لأهل العلم ، وأنه كان أقوى ساعد لنشر العلم فى مديريته وذكر إحالته إلى المعاش ومجىء مدير الدقهلية مكانه .

ذكر معرفته لعبد الله الطوير بك وكيل نيابة شبين الكوم ، وسمره معه، وأنه تعلم كثيرا من الألعاب ، ومنها « البلياردو » وشغفه بها ، وبخاصة فى عصر رمضان ، لما فيها من الرياضة والنسلية ، وكذلك فى لعبة اليزبك ، من العشاء إلى السحور .

وإجمالا كان وقته فى شبين ضائعا ، على عكس المنصورة .

ذكر أنه استمر فى الكتابة ، وأنه كتب خمس مقالات ، فى المؤيد ناقش فيها المرحوم قاسم بك أمين بعض ما رآه فى كتابه .

وذكر أنه اشتبك مع جورجى زيدان بسبب رواية « عذراء قريش » وأن الذى حرضه على ذلك هو المرحوم محمد بك فريد ، وقد وصفه بقوله : « إن هذا الشاب كان من الأفراد الذين قلما أنجبت مصر مثلهم ، فقد كان ملوءاً من فرقه إلى قدمه ، إيماناً وإخلاصا ، إذا كان فى المصريين أحد قام مجاهداً فى سبيلها لا يريد جزاء ولا شكورا ، ولا يفيد من الجمهور أية فائدة ، فهو

محمد فريد ، وإذا قارنته بذلك الشاب الذى طار صيته ، علا ذكره ، (يريد مصطفى كامل باشا) رجح فريد رجحانا كبيراً ، لأن مصطفى كان يرى نفسه ثم مصر ، وفريد كان يرى مصر ولا يرى نفسه ، وأن الذى أعرفه من دخائل الرجلين وأوليتهما يجعلنى أضع فريداً فى أرقى الدرجات .

أنا لا أبخس مصطفى حقه ، فهو شاب نبيه ، متع بوجه حسن ، وصوت حسن ، بذل مجهوداً كبيراً فى إقامة الحياة الوطنية ، ولكن شتان بين الرجلين ! ! ، اهـ .

فى الناصرية : كان مع أمين سامى بك ، ويعتبره أحسن ناظر ، وأكثرهم أدبا ، ولم تظل مدته فى الناصرية .

فى كلية غردون : ذكر أن الذى أسسها لورد كتشنر إحياء لاسم غردون باشا الذى ضحى بنفسه لمصلحة قومه ، واكتتب الانجليز فى بلادهم بنفقات بنائها ، وهم قوم سباقون إلى الجود بما يعلمون أنه يبقى لهم فى الصالحين أثراً ، وذلك سبب من أسباب عظمتهم ، وقوة شوكتهم

كان يعلم الفقه والأصول وبعض الدروس العربية ، ويذكر أنه تلقى الأصول على الشيخ حسن الطويل ، وعمل مذكرة كانت أساساً لما ألفه فيه

فى أوائل سنة ١٩٠٥ زار الامام الشيخ محمد عبده السودان فاهتمت البلاد بمقدمه ، الانجليز والمصريون والسودانيون وزار الكلية وشجعه بكلمات طيبة واطلع على ما كتبه فى أصول الفقه ، فامتدحه وطلب إليه قراءة الموافقات للشاطبى .

فى مدرسة القضاء الشرعى : لم يصل إلينا ما دونه عن مدرسة القضا الشرعى ، ولعل تاريخه فيها معروف للمعاصرين . ولكنه يذكر لنا كثيرا عن صلته بالسلطان حسين وابن أخيه فؤاد .

معرفته بالسلطان حسين : بعد أن ولى السلطان حسين سنة ١٩١٤ زار الأزهر ومدرسة القضاء الشرعى ، فزار الأستاذ فيمن زارهم بها ، وكان عضوا فى لجنة تعديل قانون الأحوال الشخصية ، فأعد الأستاذ درسا أشار فى آخره

إلى هذا التعديل ، فصافحه السلطان وضمه إلى صدره . خطب له أول خطبة فى افتتاح جامع الخواص بشارع وجه البركة ، فخلع عليه خلعة من فرو السمور ومنحه ساعة ذهبية . قابل السلطان مرارا ، بعد ذلك فى مناسبات ذكرها ، فمنحه فى أحدها منحة مالية قدرها خمسون جنيها ذهبيا فى أول نوفمبر سنة ١٩١٦ ، وسافر معه فى رحلة إلى الصعيد ، فشفعها بمثلها ، وكانت جلساته مع السلطان ذات أثر خاص فى نفسه ، وهو فى ذلك يقول :

«استفادت نفسى من اتصالى بالسلطان حسين فائدة كبيرة ، هى الجرأة فى قول ما أعتقده حقا . اعتدت معه ذلك ، فكانت نفسى تحدثنى : إذا كانت هذه عادتك مع سلطان كبير ، فكيف تنزل عنها مع من هم أقل منه شأنا وأضعف سلطانا . ولا أذكر أنى زوقت له الكلام مرة ، أو حدثته بشىء لغرض إرضائه ، وكنت أشعر أن ذلك يسره ، وقد بقى يحبنى ، حتى فرق الموت بيننا ولم أجد شيئا يكافىء حبه لى إلا أنى أحببته فى حياته وبعد مماته .

أحببت أن أبقى على الوفاء لبيته الكريم ، وكنت أجد لذلك سرورا عظيما ، إلا أن السيدة العظيمة ، والسلطانة المحترمة ، السلطانة ملك ، قللت ما كنت أشعر به من سرور الوفاء ، بما كانت تفيضه على من أياديها من وقت لآخر ، حتى صرت أخشى أن تكون تلك الأيادى هى التى تحملنى على التشرف بزيارتها » اهـ

محمد عبد الجواد
الاستاذ بمعهد التربية العالى